الفصل الثاني

تفسير الماضي

Interpretations of the past

هناك العديد من الكتابات التاريخية للمؤرخين والذين اختلفوا فيما بينهم بسبب الفترة الزمنية التي عاش فيها كل منهم، وبسبب اختلاف اهتماماتهم ووجهات نظرهم ورؤياهم، وكذلك بسبب عدم اكتمال الأدلة التاريخية المتاحة بالنسبة لهم؛ ولذلك فإنه لا توجد رؤية أو رواية تاريخية واحدة بل هناك العديد منها عن الماضي، ونحن نعتمد في بناء رؤيتنا عن الماضي والأحداث التاريخية المختلفة على معلوماتنا وخلفيتنا ومعارفنا واتجاهاتنا السياسية والاجتماعية، وعلى طبقتنا ونوعنا وكذلك اهتماماتنا، وهذا ما يجعلنا قادرين على التفاعل مع المواقف وإدراك العلاقة بين الماضي والحاضر.

إن انتقاء الأدلة التاريخية وتجميعها وتفسيرها بهدف الوصول إلى كتابة تقرير عن الماضي يتطلب التخيل imagination، ولقد أوضح ترفلان (Trevelyan, 1919) بأن التخيل هو جوهر التاريخ، وأن الحقيقية truth هي جوهر الدراسات التاريخية المختلفة، ولكن المحرك والدافع للبحث عنها هو الموهبة Poetic.

ولقد أوضح إلتون(Elton, 1970) أن التخيل التاريخي Historical imagination عبارة عن وسيلة لسد الفجوات عندما تغيب الحقائق التاريخية وتكون غير متاحة، ولقد عرف لي(Lee, 1984) التخيل التاريخي بأنه "الاستعداد لبناء العديد من الافتراضات القائمة على الأدلة التاريخية المتاحة"، وأوضح أن المؤرخين لا يهدفون إلى معايشة واقع حياة الشعوب الماضية أو أن يدفعوا بأنفسهم داخل الماضي لأن ذلك يعد غير ممكنا ولكنهم يحاولون فهم وتفسير الأفكار والمشاعر التي أثرت في أفعال وسلوكيات الناس أو الشعوب في الماضي وذلك في ضوء الاحتمالات الممكنة، إلا أن ذلك يعد أمرا صعبا لأن الناس في الماضي كانت لديهم اتجاهات وقيم مختلفة عن تلك القيم والاتجاهات التي نعيش وفقا لها الآن؛ هذا بالإضافة إلى اختلاف معارفهم واختلاف الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية للحياة التي عاشوها.

ويمكن للأطفال الصغار البدء في فهم السبب وراء وجود أكثر من رواية لنفس القصة عن الماضي، ولكي يمكنهم ذلك فإنهم بحاجة إلى فرصة للقيام بالتفسير بأنفسهم على

أساس ما يتوافر لديهم من معرفة حتى يمكنهم رؤية كيف ولماذا تختلف القصة بالنسبة لكل شخص.

فهم التفسيرات المختلفة للتاريخ Understanding Interpretations

لقد أشار بياجيه (Piaget, 1956) إلى أن الأطفال الصغار لا يمكنهم فهم أكثر من معنى في نفس الوقت، مما يعنى أنهم غير قادرين على المقارنة بين روايتين مختلفتين لقصة واحدة، في حين أوضح آخرون أن الأطفال لديهم القدرة على رؤية الموقف من خلال أكثر من وجهة نظر اعتمادا على صلتهم بالموقف وعلى مدى فهمهم له.

ولقد وجد كل من دونالدسون(Donaldson, 1978) و بروك(Broke,1978) و فلافل(Flavell, 1985) أن الأطفال بإمكانهم فهم أكثر من وجهة نظر للموقف ولكنهم لا يعرفون ما الداعي لذلك، ولقد ميزت الدراسات الحديثة بين كل من المشاهد المرئية وبين الحوارات وبين التمثيل واسترجاع الموقف والتي يستطيع الطفل التمييز بينها جميعا.

ولقد أوضح كوكس(Cox, 1986) أيضا أن الأطفال الصغار من خلال تفاعلهم اللفظي مع من حولهم يصبح بمقدورهم فهم وجهات نظر الآخرين المحيطين بهم ولكن بشكل غير مكتمل، ولسوف يكون من الممتع قياس مدى قدرتهم على إدراك أكثر من رواية القصة الواحدة، وأكثر من تفسير لنفس القصة، أو رواية القصة من خلال وجهات نظر مختلفة، وهل سيكون بمقدورهم شرح وتفسير أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بينها؟.

ويستطيع الطفل فى عمر السنتين تعلم أن هناك نسخاً مختلفة للقصص والأغاني والأناشيد، فلو كتب مؤلفان نفس القصة لاختلفت الرواية، ويستطيع الطفل التمييز بينهما على الفور، فعلى سبيل المثال يمكن مقارنة أناشيد الأطفال التي كتبت بأكثر من لغة، فأناشيد الأطفال التي كتبت باللغة الصينية ترجمت إلى ثمان لغات مختلفة، كما أن الأحداث التي تصورها بعض القصص يستطيع الطفل أن يكتشف أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بينها وبين الواقع الذى يراه بعد ذلك، ومن خلال بعض قصص الأطفال المصورة يستطيع الطفل أيضا المقارنة بين طريقة حياة الطفل الرضيع في أسرته وبين حياة ذلك الطفل الرضيع في أسرة أخرى أو في أسرة أحد أصدقائه.

ولقد أوضح توماس(Thomas, 1993) كيف أن الأطفال في مرحلة الروضة يمكنهم استنباط المعاني المتضمنة في الكتب، وقدم مثالا على ذلك في قدرة الطفل على التمييز بين اختلاف النص عن الصورة التي تقدمها بعض كتب الأطفال المصورة، كما

أوضح قدرة الطفل على التمييز بين المعاني المتناقضة التي ترد في بعض القصص، وأن كل طفل يدرك أو يستنتج وبشكل مختلف عن أقرانه بعض الأحداث الغير مرئية والمبنية على قدرته على التخمين والاستنتاج، وأن الطفل لا يتوقف عن التخمين والاستنتاج إلى أن تتضح الصورة بالنسبة له، أو إلى أن يصبح تركيز الشخصيات المتضمنة في القصة موجه بشكل أساسي إلى الأحداث الغير مرئية.

ولقد وجد توماس أن الأطفال بمقدورهم معرفة ومناقشة المعاني المتناقضة من خلال قدرتهم على تفسير النص، بالإضافة إلى قدرتهم على قراءة ما بين السطور والتي تتضمن معرفة التفسيرات المختلفة الممكنة للمعنى، ولذلك فإنه يجب على الكبار ألا يفرضوا وجهات نظرهم وتفسيراتهم المختلفة للأحداث المختلفة على الأطفال.

ولقد توصل توماس في النهاية إلى أن الأطفال في حاجة إلى الاستماع إلى روايات بديلة لنفس القصة، وهذا من شأنه أن ينمى قدرة الطفل على التمييز فيما بعد، حيث يمكنه أن يطالع أكثر من جريدة تعرض حقيقة واحدة وأكثر من وجهة نظر مثلما يفعل العديد من المؤرخين و العلماء.

إن الأطفال في سن الروضة ليسوا صغارا جدا بحيث لا يمكننا أن نقدم لهم الألعاب والخبرات الأدبية التي من شأنها أن تساعدهم على تنمية قدرتهم على البحث عن الرؤى ووجهات النظر البديلة والبدء في التفكير بشأن الخصائص والدوافع الشخصية.

تنمية قدرة الطفل على التفسير Creation interpretations

من خلال لعب الأطفال التخيلي "هيا نتخيل" سواء أكان لعب كل طفل بمفرده أو في مجموعات، فإنه يمكنهم اكتشاف التفسيرات للأزمنة الماضية المتضمنة في القصص والزيارات للأماكن التاريخية، ولا يوجد هناك اتفاق حول كيفية تعلم الأطفال من خلال اللعب حيث أن كل نظرية من نظريات اللعب تقترح طرقاً مختلفة نستطيع من خلالها مساعدة الطفل على تفسير الماضي.

ومنذ بداية القرن العشرين كان ينظر إلى اللعب على أنه أحد الطرق والوسائل التي يستطيع الطفل من خلالها فهم الخبرات الإنسانية الماضية مثل القبائل أو العشائر المتجولة، الصيد،الحرب، بناء الأكواخ، القتال، وبناء الكهوف والخيام وإعداد الطعام والتي كان من الشائع وجودها في العديد من الألعاب.

ولقد رأى برونر أن اللعب يعد وسيلة لاكتشاف استخدامات التكنولوجيا البدائية أو طرق الحياة البدائية، إن اللعب الحر Free play يتضمن في الغالب بناء القلاع castles بناء السدود والجسور وبناء قوارب الصيد وتحركها واكتشاف المواد الأساسية التي ساعدت على بناء المجتمعات الإنسانية المختلفة مثل: الخشب، الصخور، المعادن، الصوف، الجلد، وتفكيك الأشياء إلى أجزائها المكونة لها، وذلك لفهم مكوناتها وكيفية عملها ومعرفة استخداماتها.

كما أكد آخرون على الطبيعة الديناميكية للعب، فهو يتضمن اكتشاف التغير في العلاقات عبر الزمن داخل الأسرة الواحدة: مثل ميلاد طفل جديد، وفاة جد أو جدة،أو انتقال الأسرة إلى منزل آخر، ومثل هذه الألعاب تمكننا من اكتشاف القصص التي تخبرنا عن طبيعة الحياة التي كان يعيشها جدي وهو صغير، أو القصص الأخرى التي تعكس ثقافات أخرى، وقد تكون هناك طرقاً أخرى تتعلق بكيفية اكتشاف الأطفال المعاني والتفسيرات للماضي وملاحظة التغيرات التي تطرأ على حياته بمرور الزمن، وكيف كانت الحياة في الأماكن والأزمنة المختلفة.

ولقد وجد إريكسون(Erikson, 1975) أنه لو طلبنا من الأطفال إعادة بناء مشاهد مثيرة من القصص الشعبية التي تحكى من خلال لعبة " هيا أو دعنا ندعى"، فإن هذه المشاهد التي قاموا بتمثيلها أو بآدائها قد تعكس أحداث حياتهم واهتماماتهم المختلفة، وقال بأن هذه الألعاب تساعد الأطفال على فهم المشاعر الإنسانية المختلفة في الأزمنة والأماكن المختلفة.

ولقد اقترح بروس (Bruce, 1991; 77) بأن الكبار يمكنهم التواصل مع الأحداث المؤثرة والشخصيات الهامة البطولية والموسيقى والرسم على اعتبار أن ذلك يعد جزءاً من العالم الخارجي، وأن اللعب يمكنهم من التواصل مع الجانب الطفولي من حياتهم والذي يعد أمرا هاما لهم، ولقد أكد كل من سنجر وسنجر(Singer & Singer, 1991) على التأثير المستمر للعب في مرحلة الطفولة على الخيال والإبداع في حياة الكبار.

وفى اللعبة التخيلية " هيا نحاكى "يعبر الأطفال عن وجهة نظرهم الخاصة في القصص (Warlow, 1977; 93).كما أن اللعب المتعلق بالقصص عن الماضي يتضمن حوارًا تجريبيًا عن المواد والأماكن والناس أو الشعوب في الأزمنة المختلفة (Garvey, 1977; 32). وهذا يسمح للأطفال باكتشاف المشاعر والاتجاهات والعلاقات والمواقف التي تكون خارج خبراتهم المباشرة، كما يمكنهم من عمل افتراضات عن العوالم البديلة التي تكون خيالية وإبداعية ومبتكرة، ومثل هذه الألعاب تجمع بين ما يعرفه الأطفال بالفعل وما

يشعرون به وما يفهمونه، كما أنها تسمح لهم باكتشاف المواقف التي لن يواجهونها في حياتهم الحقيقية أو الفعلية إلا فيما بعد.

كما اقترح مويلس(Moyles, 1989) أن اللعب الذي يمثل الفترات التاريخية الماضية يساعد الأطفال على فهم أنفسهم وتقدير ذواتهم ومعايشة مشاعر الآخرين والمواقف التي مروا بها من خلال قيام الطفل بوضع نفسه موضع شخص آخر، حيث أن قدرة الادعاء تساعد الأطفال على أن يتعلموا عن الأشياء دون أن يمروا بها، فمن خلال لعب الأدوار يستطيع الطفل ارتداء قبعات مختلفة في مواقف مختلفة،تقليد الإشارات والحركات والتعبيرات، وما شعوره عند ارتداء القبعات والتنورات الطويلة الواسعة والجوارب الطويلة؟ وما شعوره عند حلب البقرة أو ركوب الحصان، فالطفل من خلال اللعب ينظر إلى نفسه في المرآة ويحاول تقليد الإشارات في صورة المرآة، وهذا يولد اللعب الإبداع لدى الطفل وليس مجرد تقليد أعمى للناس.

ولقد وجد جارفي (Garvey, 1977) أن الأطفال الذين يستمعون إلى قصص عن الماضي بشكل مستمر بإمكانهم تجسيد هذه القصص في اللعب بمنتهى السهولة،ويقوم أحد المتعلمين بوصف كيف أن الأطفال في عمر الثالثة الذين شاهدوا فيلم عن روبن هود في التليفزيون وتأثروا به كثيرا ما يحاولون لعب العديد من المشاهد التي أعجبوا بها أثناء عرض الفيلم. فالأطفال الصغار عند قيامهم باللعب في مجموعات يجدوا أنفسهم يقومون بذلك دون معرفة ما يعبرون عنه أو ما يفعلونه، لكن الأطفال الأكبر سنا يعبرون عن هذه الروايات خلال اللعب بطريقة تعكس اتجاهاتهم الشخصية وإبداعاتهم الخاصة.

ولقد وصف بروس(Bruce, 1991) كيف أن مجموعة مكونة من أطفال في عمر الخامسة قد استمعوا لقصة عن"الملك آرثر والأمير الأسود"، واستطاعوا أن يحولوها إلى لعبة أو مسرحية واسعة النطاق عن الأمير والأميرة، ومن ناحية أخرى فقد قام طفلان بعد سماع قصة "جورج والتنين" بتمثيلها من خلال اللعب، فألعاب الأطفال يمكنها أن تحاكى قصص عن الماضي والتي بإمكانها أن توسع من نطاق لعبهم.

ولقد أوضح بروس(Bruce, 1991) كيف أن أحد المعلمين قام بتركيب جناح لطفل في عمر الرابعة ليستطيع من خلاله أن يروى قصة الحمام الزاجل، وهذه التجربة ساعدت الأطفال على فهم الماضي وتجسيده، وزيادة قدرتهم على فهم واستحضار المعنى من خلال الرسوم المختلفة، كما أوضح أن الأطفال ابتداء من عمر العامين يمكنهم بعد سماع القصص أن يؤلفوا قصصًا ويستخدموا الرموز ويروون القصص التي تعبر عن حدث وقع في الماضي، وبذلك يستطيعون التواجد في عالمين مختلفين هما العالم الواقعي

والعالم الخيالي، وأنه من خلال استخدام الرموز للتعبير عن هذين العالمين فقد تصبح المنضدة بمثابة كهف أو حصان يساعد الطفل في محاكاة حدث معين.

إن ألعاب المحاكاة play stimulates تنشط نمو القدرة اللغوية لدى الأطفال، ويساعد على توضيح معاني ومفاهيم جديدة، وتحفز على استخدام اللغة، وتشجع على التفكير لدى الأطفال، لأن نمو اللغة لدى الطفل يعتمد على مدى فهمه للمعاني بشكل صحيح، فمن خلال اللعب يستطيع الأطفال فهم السلوكيات والاحتمالات والاختلافات واستخدام الأزمنة المختلفة والجمل المعقدة المتعلقة بالأسباب والنتائج، وهذه اللغة تعد ضرورية في تنمية التفكير التاريخي، فالمصادر المختلفة لا يمكنها أن تزودنا بمعلومات عن الماضي إلا إذا علمنا كيف نفسرها وكيف نتوصل لتفسير يوضحها.

وبالطبع، فإن لعب الأطفال التخيلي Imaginative Play يتم تشجعيه من خلال القصص التي تروى عن الماضي أو من خلال زيارة مكان تاريخي أو قلعة والتي تختلف إلى حد ما عن العمليات التي يستحضرها المؤرخون عن الماضي. إن التخيل التاريخي الحقيقي يعتمد على فهم ودراسة ما يتوافر من أدلة تتعلق بالماضي، وهذا الأمر يتطلب النضج الذي يساعدنا على فهم مشاعر الكبار في الماضي، وكيف كانوا يفكرون ويتصرفون، كما يتطلب أيضا المعرفة الواسعة بالأزمنة أو العصور التي عاشوا فيها.

إن المؤرخين لا يعيشوا أحداث الماضي أو يتعرفوا على الناس في الماضي ولكنهم يحاولون فقط شرح وتفسير الماضي بحذر وتواضع(Cooper,1992; 136-7)، ولكن الأطفال الصغار لا يتوافر لديهم لا النضج ولا المعرفة ولا الحذر للقيام بفعل ذلك (فهم وتفسير الحقائق التاريخية) بطريق صحيحة من الناحية التاريخية، ولذلك فهم يربطون الوقائع التاريخية ويفسرونها من خلال اللعب التخيلي الذي يعبرون من خلاله عن الماضي أكثر من اعتمادهم على التخيل التاريخي.

وعلى الرغم من ذلك؛ فإن الأطفال أثناء اللعب يحاولون التعرف على الناس في الماضي ويحاولون أن يدفعوا بأنفسهم داخل الماضي ومعايشة أحداثه، ففي اللعب الذي يبنى على قصص تاريخية نجد أن الأطفال يحاولون فهم الماضي من خلال تجسيد الشخصيات وإعادة بنائها بطريقتهم الخاصة التي تمكنهم من فهم التاريخ، والتي يمكن أن تعتبر بداية للبحث التاريخي عن الحقائق المهمة، والتي سوف يدعمها النضج والقدرة على التعبير والتي تنمو مع الطفل خلال مراحل نموه المختلفة.